الجزء الرابع

إطلالة علمية على سمات المفاوض الأمريكى وأسلوب المفاوض العربى .. كأحد أبعاد تفاعلات «العقل العربى» و «العقل الأمريكى»

قمنا على مدى الأجزاء الثلاثة السابقة باشارات لتعقيدات تفاعلات العقل العربى والعقل الأمريكى ولاشك أنها تتضمن على الكثير من المواقف الدالة على طبيعة وسمات كل من المفاوض الأمريكى والمفاوض العربى ، خاصة فى الجزء الأول وفى التعامل مع مستويات الغموض المتعددة ، خاصة فيما يتعلق بإدارة «أزمة الحرب العالمية ضد الإرهاب» وكذلك «أزمة الصراع العربى الإسرائيلى» ... وفى هذا الجزء نستكمل ملامح أخرى لكل من المفاوض الأمريكى والمفاوض العربى فيما يلى :

إن هذا الموضوع بحاجة إلى مؤلف كامل للاسترسال فى تفصيل تمكننا من الحكم العلمى الدقيق على أسلوب المفاوض الأمريكى ، ولا شك أن التفاوض بطبيعته مرن ويختلف من سياق إلى آخر ، ويتوقف على عوامل عديدة ، كذلك هناك سمات ثقافية تمكننا من القول بأن هذا أسلوب «المفاوض الأمريكى» أو هذا أسلوب «المفاوض الصينى» أو «أسلوب المفاوض العربى» إلى آخره .. وحتى تكون الاستنتاجات بعيدة عن التعسف والتعميم المخل ، نقول إن السطور التالية لا تنكر أن هناك حالات للنجاح وحالات للفشل فى العلاقات العربية الأمريكية الطويلة ، وأن هناك علاقات استراتيجية قوية بين أمريكا والوطن العربى . وأهم ما يدعم موقفنا فى أى علاقات مع الآخرين فى هذا العالم أن نفهم أسلوبهم ، وأن ندرك أفضل طرق التعامل مع هذا الأسلوب أو ذاك ، والتعلم من أخطائنا الكثيرة بعيداً عن مواقف الأنداهش والتعجب والإدانة ، أو الخوف والتظاهر بالنقاء المطلق المصطنع فى مقابل الظلام والغدر المطلق للآخر .

لقد كانت ولا تزال العلاقات العربية الأمريكية متقلبة وتنتابها حالات من الصخب والصراخ والاتهامات وتسجيل المواقف ، أكثر من محاولات الفهم والتحرك الإيجابى والفعال لترشيد هذه العلاقات لصالح أجندتنا التفاوضية والمباريات غير الصفرية ، ودون مواجهات رعنة وغير محسوبة مع هذه القوة العظمى . ولعل ما يجسد الكثير من حالات التفاعلات السلبية بيننا وبين أمريكا هو ما سمعته من أبيات طريفة تقول :

■ **الشاعر العربى وقاعدة امريكا**

قاعدة صارت عند ولاة الأمـــر قاعدة

الكل يشتم أمريكـــا وأمريكـــا قاعدة

فإذا جلسوا وهدأوا قامت أمريكا لتبنى قاعدة !!

ولقد التقط الشاعر هنا أول صفات المفاوض الأمريكى ، فهو رجل عملى يهدف إلى تحقيق أجندته ، لا يبالى بالكلام والقيل والقال والشتائم ، بل يتحرك نحو أهدافه ، ويشتكى الشاكى هنا من اندماجنا فى لغة لا تفيد بل تضر ، وأسلوب يفتقد العمل ولا ينفع بل يؤثر سلباً . وعموماً أود أن أؤكد على حقيقة مهمة ، وهى أننى من هذه السطور أؤكد على وجود حالات للنجاح وحالات للفشل فى العلاقات العربية الأمريكية ، وهى علاقات جدلية ، وسأقتصر هنا على التركيز على أسلوب المفاوض الأمريكى من خلال موضوع يهمنا ونعيشه بكل جوارحنا ، وهو موضوع الصراع العربى الصهيونى ، واضطلاع الولايات المتحدة بدور الوسيط أو الشريك أو الراعى أو الطرف الآخر فى عملية السلام .

والدافع لرصد سمات المفاوض الأمريكى وأسلوبه ، هو محاولة للاستفادة من دروس الماضى والحاضر ، وإعادة هياكل التفاوض بما يمكننا من التعامل إيجابياً فى إدارة علاقاتنا مع أمريكا ، دون أن نقع فى فخاخ أو نكرر أخطاء أو نجهل أشياء .

وسنحاول رصد هذه السمات من خلال تتبع التاريخ منذ بداية عملية السلام ، وصولاً إلى محطة كامب ديفيد الثانية .. أى على مدى ما يزيد عن ربع قرن الآن .

■ **المفاوض الأمريكى لا يفهم إلا لغة القوة ! من تجاهل العرب بعد هزيمة ٦٧ إلى التحرك السريع بعد نصر ٧٣**

لا يفهم المفاوض الأمريكى إلا لغة القوة وممارستها بأشكالها المتعددة ، فهو ينتمى فعلاً لثقافة يعتبر مكون العنف فيها عال جداً ، فتوسع أمريكا من الشاطئ الشرقى للشاطئ الغربى ، واجتياحها فى ذلك كل القوى المعادية من إنجليز لفرنسيين لأسبان ، علاوة على إبادة الهنود الحمر ، وتوحد أمريكا بعد حروب عاتية بين جنوب الولايات المتحدة وشمالها ، وشيوع ثقافة رعاة البقر فى جذور المجتمع ، يؤكد كل ذلك محورية مفهوم القوة فى العقلية الأمريكية .. وأكبر دليل على ذلك أن أمريكا لم تستمع إلى عرب ١٩٦٧ ، حين حدثت الهزيمة الموسفة ، حاول السادات فى عام ١٩٧١ القيام بمبادرة سلمية ، وحاول وزير الخارجية المصرى الدكتور الزيات فى أكثر من سياق إجراء مفاوضات لتنفيذ القرار ٢٤٢ الذى صدر من الأمم المتحدة بعد يونيو ١٩٦٧ والقاضى بانسحاب إسرائيل من الأراضى التى أخذتها . ولكن كانت كل محاولة أو مبادرة لا تقابل من الأمريكيين فقط بالرفض ، بل بشئ من الاستنكار والتهكم إلى الحد الذى دفع بكيسنجر لأن يقول لوزير خارجيتنا الزيات مقولته الشهيرة : «لو استطعتم عمل شئ فى أرض المعركة ربما ننظر لهذا الملف» وكان يقولها على سبيل التعجيز حيث كانت هناك قناعة راسخة فى العالم أننا قد أصبحنا جثة هامدة ولا حياة فينا إلا ربما بعد عقود طويلة .

■ **تكريس التجاهل للضعيف !**

فى مستهل السبعينيات ، أكدت كل من واشنطن وموسكو تجاهلها للحقوق العربية ، وأصبح على العرب من وجهة نظر كل منهما أن يقبل بسلام الإذعان التام، وذلك من خلال التقارب الشهير الذى حدث بين القوتين العظمتين فى ذلك الوقت تحت مسمى «سياسة الوفاق» . وكان من بنود الاتفاق ألا تتحرك الأمور على جبهة قناة السويس أو الجبهة السورية بمساعدة السوفييت وتظل كما هى . أى أنه ليس أمام العرب إلا قبول الأمر الواقع .

■ **المساومات يجب ان تكون واضحة وليست ضمنية**

فى خضم تسلسل الأحداث ، يمكننا فهم سمة أخرى من سمات المفاوض الأمريكى ، وهى أنه مساوم بالدرجة الأولى . بمعنى أن لكل شئ ثمناً طبقاً للاتفاق، وأنه لا ثمن لما قد يحصل عليه مجاناً . فعندما طرد السادات الروس – لأنه كان يعلم أنه لم يكن ممكناً القيام بمعركة العبور وهم على الأرض المصرية – سُئل كيسنجر : ألا يوجد ثمن تقدمه أمريكا للسادات نظير طرده للروس ؟ فكانت إجابته أنه قام بذلك دون اتفاق معنا ، ولو فعل لكان له مقابل ، ولكنه فعل هذا من تلقاء نفسه ولأغراض تخصه !

■ **احترام لغة القوة فقط وقبول نتائجها .. والاعتراف بالعربية فى الأمم المتحدة**

فى رمضان أكتوبر ١٩٧٣ ، عبرت قوات مصر قناة السويس ، وهاجمت القوات السورية قوات الاحتلال الإسرائيلى فى الجولان ، بتنسيق وفاعلية إعادة الثقة للعرب ، وتم استخدام سلاح البترول لأول مرة بشكل موجع وفعال تماماً للولايات المتحدة الأمريكية . **وبدأ العالم يردد مقولة : إن العرب هم القوة السادسة فى هذا العالم فى ذلك الحين حتى إن الأمم المتحدة أعتبرت اللغة العربية لغة رسمية فى مؤتمراتها وأنشئ قسم للترجمة منها واليها ضمن اللغات الرسمية القليلة المعترف بها عالمياً فى هذه المنظمة** . لقد كانت لحظات مجيدة – ولاشك – فى تاريخ الأمة العربية العريقة . وجاء كيسنجر للسادات بعد إعلان حالة التأهب النووية فى القواعد الأمريكية عبر العالم ، حين قام السادات بطلب نزول القوات الروسية والقوات الأمريكية لتأمين وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ . حيث إن السادات لم يكن واثقاً فى قدرة الأمم المتحدة على القيام بهذه المهمة . وذكر كيسنجر فى كتابه الشهير بعنوان «سنوات الغليا» «أن هذا الرجل المجنون ويقصد (السادات) فعلها» . ذهب كيسنجر ليقول ذلك لنيكسون ويفيده بأن القوات الروسية المحمولة جواً على استعداد لتلبية طلب السادات ، وأن الولايات المتحدة التى كانت تحارب بجوار القوات الإسرائيلية فى العشرة أيام التالية لبدء الحرب لم تكن تريد أن تتدهور الأمور إلى حرب عالمية ثالثة ، ولذلك تم إعلان حالة التأهب النووى فى القواعد الأمريكية ، فى الثانى والعشرين من أكتوبر جاء كيسنجر ليقول للسادات «لقد أوجدت أزمة دولية كبيرة ، وها أنا كى نتعاون معاً فى إداراتها ولتحقيق السلام»[1] .

(١) Kissinger, Henry. **"Years of Upheaval"** little Brown Co: Boston, 1982.

■ **نيكسون يعترف بالانتصار الساحق على جبهة القناة لمصر ويوجه اول تهديد ضمنى للسادات**

إن من أهم وثائق حرب أكتوبر المنشورة ، والتى ينبغى الاهتمام بها ، ذلك الخطاب الذى أرسله ريتشارد نيكسون إلى السادات والذى ذكر فيه نصاً : «إن الولايات المتحدة تريد إنهاء القتال الدائر على جبهة قناة السويس ، لأن هذا من شأنه تسهيل الأمور نحو السلام والوصول إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى . إن القوات المسلحة المصرية قد حققت الكثير . إن شعور الإذلال الذى شعر به المصريون والعالم العربى كله عقب ١٩٦٧ قد تم محوه تماماً . **فلقد بزغ اليوم موقف استراتيجى جديد يؤكد على عدم إمكانية أى طرف الاعتماد على القوة العسكرية فقط ، بل إن ذلك أصبح من الأوهام**»[1] .

ويستمر الخطاب حتى يتضمن فى نهايته أول تهديد ضمنى للسادات ، يقول فيه نيكسون : «إن على الجانب المصرى بالتالى أن يسعى نحو السلام ، ويتخذ قراره فى هذا الاتجاه ، لأنه لو أصرت مصر على التركيز إلى أقصى حد على أرض المعركة العسكرية فقط ، فإن الجانب الأمريكى لا يعنى كيف ستكون نتائج هذا السعى المصرى وهل ستكون حاسمة أم لا !!» .

لقد أكد هذا التهديد الخفى أو الضمنى للسادات كل تلك الأسلحة والمعدات التى كانت تلقى بها الولايات المتحدة إلى أرض المعركة بأطقمها ، بعد وضع علامة نجمة داود عليها . ولقد تم الاستيلاء على الكثير من هذه المعدات والأسلحة الحديثة من قبل القوات المصرية فى تلك المعركة المجيدة .

■ ***من التهديد الضمنى إلى التهديد الصريح***

لم يكتف المفاوض الأمريكى – ممثلاً هذه المرة فى كيسنجر عند لقائه بالسادات – بالتهديد الضمنى ، بل ذهب إلى التهديد الواضح والصريح ، ولكن المُخفِّفَ فى وقعه ، لإحداث التعاون والانتقال من أرض المعركة إلى مائدة التفاوض ، حين ذكر كيسنجر للسادات الذى أخذ يهدد إبادة ثغرة الدفرسوار . ويقول لكيسنجر : «عاملين دعاية وبيقولوا إنهم عبروا للضفة الغربية . وأنا أستطيع إبادتهم» وهنا بادره كيسنجر بأنه يعلم أن السادات قادر على إبادة هذه الثغرة ، ويعلم أن القوات المصرية قد أطبقت على الثغرة من كل جانب وقطعت خطوط إمدادها ، ولا يبقى سوى تدميرها وقال : «**ولكن إذا فعلتم فإن البنتاجون سيضربك**» وكررها ثلاث مرات ، وأتبعها بقوله : «إذن أنا أريد أن نخرج جميعاً من هذا المأزق ، ومن الوصول إلى طريق يمنع المزيد من حمامات الدماء» . وكانت تلك البداية نحو فك الاشتباكات ثم كامب ديفيد الأولى . وهنا تثار كثير من التحليلات لن نخوض فيها فى هذا السياق ، لأن الهدف الرئيسى هو التركيز على إظهار سلوك وأسلوب المفاوض الأمريكى منذ بداية عملية السلام إلى نهايتها . ولكن الحقيقة المهمة ، أنه قد تم فرض مبدأ الأرض مقابل السلام من جانبنا ، ولم يسع الطرف الأمريكى إلا قبوله كإطار للحل السلمى، وإلى

(١) السابق ص ٥٣٠ Kissinger .

اليوم تعترف الخارجية الأمريكية بأن القدس الشرقية مما احتلته إسرائيل من الأراضى المحتلة طبقاً للقانون الدولى .

■ **ملمح تعميق الدكتاتورية وتكريس الانفراد بالقرار لدى الطرف الآخر**

إن من سمات الأسلوب الأمريكى فى التفاوض ، عكس ما يروج له فن الدعاية الأمريكية بخصوص مفهوم الديمقراطية فى عملية اتخاذ القرارات وصنعها ، وقد يقبل الأمريكيون الديمقراطية من إسرائيل وداخل الولايات المتحدة والغرب عموماً ، **ولكن كل ممارستهم التفاوضية - مع العرب خصوصاً - تؤكد على مبدأ دعم الديكتاتورية والانفراد بالقرار ، ولقد كان أكبر دليل ما فعله كيسنجر فى مناوراته التفاوضية مع السادات ، والتى كانت موضع دراسة سابقة لكاتب السطور .**

■ **قصة العقرب والضفدع ومفاوضات الشرق الأوسط**

حيث استخدم كيسنجر مفهوم «التأثيرات الجانبية Side Effects» ، فى التفاوض ، وهنا روى قصته الشهيرة عن «العقرب والضفدع على ضفاف نهر النيل» ، حيث يقول كان هناك عقرب يريد العبور من ضفة إلى أخرى وطلب من الضفدع أن يحمله على ظهره ، ولكن الضفدع تحفظ وقال له : «أضعك بنفسى على ظهرى لتلدغنى ؟!» فقال له العقرب : «أنا سأقفز على ظهرك وأنت فى المياه ، فكيف ألدغك ؟ فإن فعلت لغرقنا أنا وأنت معاً ، وهذا لن يكون تفكيراً عقلانياً» . فأقتنع ، فقفز العقرب على ظهر الضفدع ، ولكن فجأة فى منتصف النهر ، لدغ العقرب الضفدع ، فقال الأخير : «كيف تفعل هذا أيها الأحمق» ؟ فقال العقرب لا تنس أنك فى الشرق الأوسط .. حيث لا منطق ولا عقلانية» وبالطبع التعريف الأمريكى هنا للمنطق والعقلانية هو تعريف خاص ، **فإذا أرادت الولايات المتحدة أن يسود المنطق والعقلانية ، فليكن هذا من خلال ديكتاتوريات قمعية «زعيم عبقرى» يتخذ كل القرارات برأسه ، فيسهل السيطرة عليه وممارسة الضغوط عليه ، وهذا ما أكده كيسنجر بعد قصته حينما قال للسادات : «جنرالاتك لا يريدون التوقف عن المعارك ، ويريدون العمل على أرض المعركة فقط ، وأنا سمعت أنك لا تستطيع السيطرة عليهم ، ويبدو أن الأمور تسير فى طريق لا نعرف مسالكه ؟»**[1] وكانت إجابة السادات العملية على هذه المقولة - وأعتقد أنه وقع هنا فى فخ كيسنجر بدلاً من أن يستغلها للهروب من محاولات كيسنجر للتأثير السلبى عليه .

حيث كان المشهد كالتالى وكما وصفه حرفياً هنرى كيسنجر فى كتابه سنوات الغليان :

«السادات يطلب حضور الجمسى ويقول له ، وكلاهما يرتدى الزى العسكرى : «دكتور كيسنجر وأنه قد توصلنا إلى اتفاق لفصل القوات، وأنت ياجمسى الذى سوف توقعه . «ويقول كيسنجر» : إن هذا كان مشهداً لا ينسى ، فلقد كان من شأنه

(١) السابق ص ٨٣٦ Kissinger .

كبت أى محاولة لمقاومة هذا القرار من قبل الجمسى وقبل أن يسمع تفاصيل الاتفاق»[1] . وهنا فلقد نجح السادات فى إثبات أن القائد لا يفوض فى سياقات بعينها بل يتحمل المسئولية كلها على عاتقه» .

وبتحليلنا لهذه اللقطة التفاعلية ، نقول إن السادات قد نجح فى تبديد أى شك لدى كيسنجر فى أنه الوحيد الأوحد المتخذ لأى قرار وبحسم شديد ، وأنه ذلك المفاوض الذى لا ينبغى لأحد أن يشك فى قدرته الكبيرة على اتخاذ أى قرار فورى ، فلقد كان بإمكانه أن يرفع سماعة التليفون ويخبر الجمسى أو غيره بما وصل إليه ، خاصة وأنه القائد الأعلى للقوات المسلحة ولكنه أراد من خلال هذا المشهد التأكيد لكيسنجر على عكس ما قاله له من عناد الجنرالات ، وأنهم يكادون أن يكونوا خارج السيطرة عليهم .

وهنا قد يكون السادات قد وقع فى فخ كيسنجر الذى كان يهدف إلى تعميق ديكتاتورية الطرف المتفاوض معه لسهولة الضغط عليه فيما بعد ، وهذا ما حدث من خلال أمثلة عديدة أخرى ، رغم مقاومة السادات لكثير منها ، وليس سياقنا هنا رصد مثل هذه الأمثلة .

وهناك تصريح حديث لكيسنجر أورده طارق حجى فى مقال له بجريدة الوفد مؤخراً مفاده أن كيسنجر يقول : **«إن الديمقراطية فى الوطن العربى خطر على المصالح الحكومية»**[2] .

■ **تعميق ديمقراطية خاصة ترعى التنازل والإذعان**

إذا كان ما ذكرنا أعلاه يرسخ الرغبة فى تعميق الديكتاتورية والشمولية فى الوطن العربى لسهولة التعامل مع هذه الأوضاع من قبل المفاوض الأمريكى فى أحيان بعينها ، فإن هذا المفاوض يملك مرونة عجيبة ، ولكنها مرونة محسوبة دائماً فى استهدافنا . فلقد كشفت التفاعلات الأخيرة بعد فشل قمة كامب ديفيد الثانية مؤخراً هذا الأمر . ولقد ورد فى مقالين متتاليين للكاتب الأمريكى فريدمان وغيره من الأصوات الوثيقة الصلة بالبيت الأبيض والإدارة الأمريكية (فى ٢٠ ، ٢١ يوليو ٢٠٠٠) ما يجعل المرء يتعجب من المنطق الأمريكى المجحف على عدة أصعدة ، وعندما نقرأ ما المطلوب منها ، نجده وكأنه يطلب أن تكون هناك ديمقراطية خاصة من شأنها إعلاء مبدأ الإذعان وقبول الضغوط الأمريكية والتفريط فى الحقوق . فالمطلوب أمريكياً أن نضغط على عرفات ليتنازل فى مسألة القدس ، وألا تؤسس جبهة عربية موحدة ، فلقد نقد زيارة الرئيس مبارك إلى السعودية أثناء اجتماع

(١) السابق ص ٨٣٧ Kissinger .

(٢) حجى ، طارق ، «تعليق على تصريح ردى» الوفد ٢٠٠٠/٢/١٦م .

كامب ديفيد الفاشل ، كما كان ولا يزال من المطلوب منا إزالة السلاح الكيماوى ، كما كان مطلوباً منا ضرب ليبيا والسودان ، أو إطباق الحصار عليهما على الأقل فى مواقف سابقة ، وكان مطلوباً منا عدم الوقوف إلى جانب لبنان .

إن الديمقراطية التى يرغبون لنا فيها هى ديمقراطية الإذعان ، وإلا فلا بأس من تعظيم شأن الديكتاتورية والشمولية عندنا من جانبهم ، خصوصاً وأن الهامش الديمقراطى الأمريكى ذاته يتقلص داخل أمريكا ذاتها بفعل عوامل ومستجدات عديدة أوضحناها فى دراستنا بعنوان «سيناريو انهيار أمريكا» .

من هنا وفى إطار ممارسة الهيمنة ، يتم اللعب بالألفاظ والعبارات إلى أبعد الحدود ، وها هو ذلك التعبير الجديد المعروف «بالدول المارقة» ولقد بدأ استخدام سلاح الدولة «المارقة» وإحدى صفاتها أنها ضد السلام وتشجع الإرهاب ، فلقد وجدنا من يلوح مؤخراً بوضع كل من مصر والمملكة العربية السعودية فى إطار هذه الدول بحجة دعم القاهرة والرياض لعرفات ، مع إفهامه أنه لا يوجد حاكم عربى يستطيع التنازل عن القدس .

من هنا لابد للمفاوض العربى أن يدعم ما يسمى بدبلوماسية المسار الثانى ، التى من شأنها تدعيم الموقف الرسمى بتفعيل كل الطاقات لتدعيم الأجندة التفاوضية العربية لصالح الحل العادل فقط ، ولعل من المهم ألا نرى النخبة الفلسطينية المتميزة والممثلة فى مفكرين مثل إدوارد سعيد وهشام شرابى وغيرهما ممن لديهم إمكانية مخاطبة الرأى العام الأمريكى والدولى ، فى مواجهة مع الزعيم الفلسطينى ، بدلاً من تدعيم وتعظيم موقفه ، فهو عندما يتسلط وينفرد بالقرار ، يكون مكشوفاً للضغوط بأنواعها ، وهذا ما أثبته المفاوض الأمريكى والإسرائيلى لسهولة التعامل مع «الديكتاتوريات» كما أوضحنا .

■ **اسلوب التفكيك للكتلة العربية وتعميقه !**

عندما نسمع عن ضغوط أمريكية لمنع قمة عربية ، نسأل بعضنا البعض : إلى هذا الحد . وصل حجم التدخل فى شأننا الداخلى العربى ؟ [1] .

(١) روى الدكتور الزيات وزير الخارجية الأسبق عن لقاء بعض وزراء الخارجية العرب مع الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون فى أعقاب حرب ١٩٧٣ ، وبعد انتهاء اللقاء ، استبقى الرئيس نيكسون وزير خارجية السعودية عدة دقائق معه ، ولم يقل له شيئاً ذا قيمة . استعجب الوزير السعودى وحكى ذلك للدكتور الزيات ، الذى أجابه بأن كل المطلوب من ذلك أن يشك بقية الوزراء فيه .

■ **الأسلوب المعلوماتي المتميز للمفاوض الأمريكي . وسؤالي لويليام كوانت أو الأسلوب الفردي في مجابهة أسلوب الـ٢٠٠٠ صفحة**

في الوقت الذى انتهج فيه السادات أسلوباً منفرداً فى المفاوضات دون أوراق أو دراسات أو فريق متكامل بالمعنى المطلوب ، درس كارتر كل جوانب شخصية السادات والخلفيات التى ينطلق منها ، فى تقرير ضخم قيل أنه قد ورد فيما يقرب من ألفين من الصفحات والملاحق . ولاشك أن هذه ميزة وأداة مهمة يستخدمها المفاوض الأمريكى .

ولا أنسى مقالة الخبير الاستراتيجى ويليام كوانت ، وأحد الضالعين فى آليات عملية السلام ومفاوضات كامب ديفيد الأولى : فلقد كان السفير الدكتور أشرف غربال يقوم بتدريس فصل دراسى عن عملية السلام فى الشرق الأوسط بوصفه أستاذاً متميزاً فى الدبلوماسية ، وكان ذلك فى جامعة چورچتاون عام ١٩٨٧ ، سارعت إلى التسجيل فى ذلك الفصل أثناء فترة دراستى للحصول على الدكتوراه من تلك الجامعة ، وكان كل ما طلبناه كمشاركين ، هو أن يأتى لنا بكل من يمكن دعوته ممن خاضوا فى عملية السلام ليكون ضيفاً ونسأله كيفما نريد . ولقد أستجاب د. غربال إلى هذا المطلب مشكوراً . وعندما حضر إلينا ويليام كوانت ، سألته السؤال التالى : «سمعنا أن كارتر كان يسعى لإنجاح اتفاق كامب ديفيد بأى وسيلة ، خصوصاً وأن شعبيته كانت منخفضة ، وكذلك شعبية الحزب الديمقراطى ، وكان عليه أن يفعل كل ما فى وسعه لإنجاح نفسه فى المقام الأول ، ورغم محاولاته أن يكون محايداً قدر طاقته ، إلا أنه مارس ضغوطاً كبيرة على السادات دون بيجن ، فإلى أى حد يعتبر هذا صحيحاً ؟» .

فقال كوانت : « هذا صحيح إلى حد كبير ، فلقد كان هدف عمليات التفاوض الاستكشافى فى بداية محادثات كامب ديفيد التى كلفنا بالقيام بها ، هو استكشاف **من يسهل عليه الضغط أكثر : السادات أم بيجن** ؟ لإنهاء المفاوضات بالوصول إلى نتائج حاسمة ، ولقد كان من الصعب الضغط على بيجن ؛ لأنه كان يربط كل شئ بالرجوع إلى الكنيست ، وكنا نعلم أن هذا ليس أمراً شكلياً، فى حين أن السادات لم يكلفنا العناء الكبير عندما أوضح لنا عمق خلافاته مع الأطراف العربية المعارضة له، وعرفنا أنه إذا قال : سأرجع إلى مجلس الشعب المصرى قبل أن أتخذ هذا القرار أو ذاك ، فما ذلك إلا مناورة غير حقيقية ، ولكن إذا قال لنا السادات فى ذلك الوقت : سأعود إلى تقييم الأمر مع الإخوة العرب ، لفهمنا رسالة تمثل الثقل الكبير الذى وضعناه للسادات كرئيس لمصر ، فلقد اقتنعنا عقب ١٩٧٣ ورغم حالة التفرقة والخلافات الشديدة قبلها ، أن مصر استطاعت أن تقود هذه الأمة وأن تشن الحرب وتسمح باستخدام سلاح البترول لأول مرة ، وكنا نرصد فى ذلك الوقت كل الشتائم التى كانت تكال للسادات ولمصر لذهابه إلى كامب ديفيد ، وقد كنا على

ثقة أنها مجرد «ظاهرة صوتية» كالعادة ، ولو أظهر السادات أن ثقله يتمثل فى قدرته على قيادة العرب كما كان الوضع عقب ١٩٧٣ مباشرة ، لكان تقديره سليماً لأننا كنا وإلى آخر لحظة ورغم الظواهر الخلافية العربية العميقة ، نضع له وزناً عالياً ، مفاده أنه رئيس أكبر دولة عربية لها تأثيرها الكبير ، ولكنه أوضح لنا عمق خلافاته مع بقية الدول العربية التى لا يمكن التعامل معها ، وهنا أنقصنا الوزن الذى أعطيناه له ، وبدأنا فى ممارسة كل الضغوط فى اتجاه وأكثر من مرة ، وحينما استدعى السادات الطائرة الهليوكوبتر للسفر وترك محادثات كامب ديفيد ، كنا نقول له عبارة واحدة : «**وماذا ستفعل مع الذين ينتظرونك وأنت تعود فاشلاً ؟ إنك ستفقد الكثير بذلك .. فهل تريد ذلك ؟!**»[1] .

■ **اسلوب «الخطوة خطوة .. طريقة لتجريدك من اوراق التفاوض» !!**

لقد أوضحت عملية السلام وبالأسلوب الذى تتم به ، أن إجراءات الثقة المتمثلة فى الحل خطوة خطوة ودون الربط الكلى للقضايا ، قد أعطى معنى «الشبهة» لهذا الأسلوب .. وتاريخ عملية السلام أثبت أنه استخدم لاستخلاص أوراق التفاوض من يد المفاوض العربى ، حتى إذا حانت لحظة القضايا المهمة والكبرى ، لا نجد أوراقنا فى أيدينا وهنا يكون الإذعان هو الحل فى أغلب الأحوال .

■ **من السادات إلى عرفات ، ومن كامب ديفيد الأولى إلى الثانية**

إن مقولة «التاريخ لا يعيد نفسه» مقولة قد تكون صحيحة إلا فى الواقع العربى، والخطورة أن يكون ما يعاد يُعاد وكأننا لا نستفيد من دروس الماضى ، فبالرغم من أن عرفات كان من الناقدين للسادات وممن كالوا له كل عبارات الاتهام ، إلا أنه وبعد أن رحل السادات بسنوات طويلة ، اقتنع عرفات بما فعله السادات ، وسار على دربه ولكن دون أن يتعظ من أخطائه .

فلقد أكد جيمس بيكر فى مؤتمر مدريد فى مستهل التسعينيات ، علم عدم جدوى الربط بين المسارات ، وعدم ربط الخطوة خطوة بالكليات فى هذا الصراع .

والمشهد نفسه – على أسوأ بكثير – يتكرر حين يوصى جيمس بيكر أن الربط الكلى غير عملى «بل وغير تفاوضى» وتبتعد عن مادة المفاوضات القضايا الحيوية كالقدس واللاجئين والمياه ، ويبتعد أسلوب الخطوة خطوة عن بناء الثقة المفترض منه، ليتحول إلى وسيلة لتجريد المفاوض الفلسطينى من أوراقه ، ليعنى بعد ممارسة توظيفه أن الخطوة خطوة قد استخدمت لتحقق ما يلى :

- الضغط على المفاوض العربى للانصياع للوسيط الأمريكى وللأوضاع التى تحاول أن تفرضها إسرائيل .

(١) السابق Kissinger .

- التغاضى عن عدم الالتزام الإسرائيلى .
- محاولة جعل السلطة الفلسطينية وطنية شكلاً لا مضموناً بحيث تقوم بدور الحراسة للاحتلال وتقنينه وأن تقوم بقمع للانتفاضة ، وأكثر من ذلك للرأى ولكل أصحاب الآراء الجريئة المخالفة تحت ما حددته إسرائيل من مصطلح «التحريض ضد عملية السلام» ، ولا فرق هنا بين تعريفات «إجراءات الثقة المشبوهة» وما حدده الوسيط فى إطار مصطلح ومواصفات «الدول المارقة» بحيث يبدو أن الدول التى ستقاوم الضغوط ستتحول إلى دول مارقة ينطبق عليها إيقاع العقوبات .

وعموماً نجد من السادات إلى عرفات أن المفاوض الأمريكى قد أكد على أسلوب الخطوة خطوة ، لتجريد المفاوض العربى من أوراقه بل وبث «البلبلة والإنشقاق والتفكك بين المسارات» وكذلك تعميق ديكتاتورية المفاوض العربى ، بحيث يكون الوحيد الأوحد الذى لا يراجع شعبه ولا قطاعاته المختلفة ، وبذلك تم منع أى تأثير إيجابى على صعيد دبلوماسية المسار الثانى ، المتمثلة فى الرأى العام واشتراك موسسات الدولة وبرلمانها فى اتخاذ القرار ، والرجوع إليها قبل اتخاذه ، ليمثل أقصر الطرق أمام المفاوض الأمريكى والإسرائيلى لممارسة الضغط والحصول على مزيد من التنازلات ، وإذا أريد مقاومة الضغوط وإحلال الشرعية واستفادة الجميع ، فعلى المفاوض العربى أن يعى الدرس فى هذه المرحلة الحاسمة وقبل أن يحدث المزيد والمزيد من الخسائر .

إن أبسط وأحدث دليل على فشل أسلوب الخطوة خطوة بالطريقة التى تمت ممارستها ، أنه وقبل قمة كامب ديفيد الثانية ، أصر عرفات على تنفيذ الانسحاب الإسرائيلى الثالث الكبير من الضفة على أساس أنه ضمن استحقاقات المرحلة الانتقالية ، لكن باراك أصر على ربط هذا الانسحاب بقضايا المرحلة النهائية ، وهذا أبلغ دليل على فشل أسلوب الخطوة خطوة دون الربط الكلى ، حتى وإن وظفه باراك. وأن أساس العملية السلمية التى أعلنها وأقرها الوسيط كانت من الأوهام التى بيعت للمفاوض العربى ولم يلتزم بها الطرف الإسرائيلى ، وعاونه على ذلك بكل تناقض الوسيط الأمريكى الذى ينادى بشئ ليفعل شيئاً آخر .

■ المفاوض الامريكى ودلالات مسميات الدور الامريكى

أول من لفت النظر إلى مسميات الدور الأمريكى وقبل عملية السلام كان الرئيس السادات – رحمه الله – حين ذكر فى خطاب له ، وبشئ من الطرافة ، أن جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكى الأسبق قد ذكر له أن دور الوسيط الأمريكى سيكون مجرد "Catalyst" وقال السادات : فى الحقيقة أنا لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة فسألته . وإيه معنى «الكاتاليست» ؟ فأجاب إنه العامل المساعد الذى يدخل فى التفاعل الكيميائى ليساعد على التفاعل فقط ، وليس له وظيفة

أخرى . وكان تعليق السادات بالرفض وقوله إن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا فكيف تكون «كاتاليست» ؟ ثم جاء بعد ذلك المصطلح الذى أدخله كارتر هو «السمسار الأمين Honest Broker» وهذا وصف أصوب من السابق .

فالسمسار يفيد الطرفين عندما يكون أميناً ، ثم جاء بوش (الأب) ليصف الدور الأمريكى بأنه «القوة الدافعة لعملية السلام Momentum - giving party» ليعطى قوة الدفع لعملية السلام فى الاتجاه الذى تحتاجه ، وإن كان الضغط على إسرائيل أحياناً ، وهذا ما حدث قليلاً ، ولكنه كان عجيباً للإسرائيليين ، حين عمل على وقف بناء المزيد من المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة . ولكن لجورج بوش (الأب) تعبير مشهور عندما عزل إسرائيل فى «حرب الخليج» ١٩٩٠ عن التدخل من أجل تعميق قوة جبهة التحالف العربى معه وهو "No Linkage" ، أى لا ينبغى الربط ، وذلك عندما سُئل : هل يطبق بوش قرارات الشرعية الدولية مع إسرائيل مثلما كان يفعل مع العراق ؟ فأجاب بالرد : «لا ربط» والذى يمثل إستراتيجية متواصلة من التناقض والمعايير المزدوجة الأمريكية .

ثم جاءت إدارة كلينتون فوصفت الدور الأمريكى فى عملية السلام على كونه «المسهل» أو «الميسر Facilitator» وهو الدور الذى اتسم فى عهد كلينتون بعكس المسمى تماماً ، بالتحيزات الصارخة التى أفقدت الدور الأمريكى مصداقيته ، وهو الذى حدى بالرئيس كارتر إلى أن يكتب مقالاً فى النيويورك تايمز بتاريخ ٢٠٠٠/٨/٦ ليندد بأسلوب إدارة كلينتون فى المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية ، ووصفه بأنه يتمثل فى احتضان طرف وإدانة الطرف الآخر ، وطالب أن يكون الوسيط الأمريكى محايداً ، أو أن يبدو محايداً على الأقل ، حتى لا تفقد الولايات المتحدة المصداقية .

■ **الانسحاب السلبى للوسيط !!**

استخدمت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «مادلين أولبرايت» مصطلحاً طريفاً للغاية أثناء «الاشتباكات التفاوضية» بين الفلسطينيين والإسرائيليين وهو مصطلح «استراحة وقتية من المباراة Time Out» وهو مصطلح من الملاعب الرياضية ويطلق عليه تعبير «الوقت المستقطع» حيث يطلب مدرب أحد الفريقين ذلك ، لتتوقف المباراة ثم تستأنف.. ويبدو أن الوسيط الأمريكى قد طور هذا المفهوم فى عهد الرئيس الأمريكى «بوش» الابن ، ليكون «الانسحاب الفعلى» أو «الوقت المستقطع إلى إشعار آخر» ، حيث لا تهتم الإدارة الجديدة بمسألة الشرق الأوسط بالقدر السابق اللهم إلا على مستوى الخطاب الظاهرى والبيانات المتكررة «بضبط النفس» و «حث الأطراف على العودة إلى مائدة المفاوضات» و «إدانة الإرهاب» و «وقف العنف» ولعل وضوح هذا الدور بالقيام بعملية انسحاب تتأكد من مقولة مستشارة الرئيس الأمريكى

«كوندليزا رايس» «فلنترك المنطقة لتتفاعل القوى بها Leave the area to its own forces» ! ولكن الحقيقة أن الانسحاب إنما هو لصالح الأجندة الإسرائيلية الراهنة القائمة على تقويض كل أركان ما سمي «بعملية السلام» والقضاء على روح ونصوص الاتفاقات التى أبرمتها إسرائيل مع السلطة الفلسطينية . وهذا الانسحاب الفعلى من ممارسة أى دور إيجابى وفعال إنما يعد من باب الانصياع التام والفعلى للانحياز الكامل إلى إسرائيل ، والذى تطور طالباً فى العديد من المواقف وكانت له تجلياته عندما رفضت الولايات المتحدة طلباً لعرفات بزيارتها كما كان الحال فى الماضى حينما كنا نسمع عن «وجود صعوبات تواجه عرفات فى الحصول على فيزا لدخول أمريكا» فى بدايات «عملية السلام» . كذلك كان من التجليات الصارخة بعد أن أحتلت إسرائيل «بيت الشرق» فى القدس الشرقية أن رفضت أمريكا طلب ملك عربى لزيارتها ، فهذا إن صح هذا العنوان الرئيسى الذى ورد بصحيفة الأهالى بتاريخ ٢٠٠١/٨/١٥ م وكان : «الرئيس الأمريكى يرفض استقابل ملك عربى» وذلك بحجة «بالغة الدبلوماسية» أن «الرئيس بوش (الابن) يتفرغ لرحلة صيد» !! وهو أمر خطير ولكنه غير مستبعد تماماً .

إذا كان قد خضنا فى مسميات الدور الأمريكى فى عملية السلام والتى بدأت بما قاله الأمريكيون عن أنفسهم من خلال تعبيرات «السمسار الأمين» ثم «القوة الدافعة لعملية السلام» ثم «الميسر أو المسهل» ، فإن التعبير الأخير الذى نقدمه لوصف هذا الدور هو «الانسحاب السلبى» لصالح الانحياز الواضح للطرف الإسرائيلى مع الاكتفاء بتصريحات التهدئة «المراوغة» التى أوضحناها . ويبقى أن نقول : إن طبيعة التفاعلات تتكرر وتتكرر ، لتؤكد سمات المفاوض الأمريكى فى حالة الصراع العربى الإسرائيلى ، فلقد اعتبر «السادات» «بهلوانا» قبل حرب ١٩٧٣ ولم يعره أحد اهتماماً ولم ينظر إلى مبادراته بشئ من الجدية قبل ١٩٧٣ ، ولكن بعد حرب رمضان – أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة كانت ممارسة القوة العربية واضحة وتم قطع البترول إلى آخره ، فتغير على الفور أداء الدبلوماسية الأمريكية وأصبح المفاوض الأمريكى يهتم ويتحرك ، وأصبح للسادات مسميات أخرى فى خطاب الدبلوماسية الأمريكية ، وفى خطاب الرأى العام حيث سمى بـ «صلاح الدين العربى» أثناء فترة الحروب ثم «بأحد حكماء العالم» ثم بـ رجل السلام» إلى آخره .

إن المفاوض الأمريكى دائماً يكون فى حاجة إلى أن يعرف ويتأكد من أن الطرف الذى أمامه يقدر على ممارسة الضغط على مصالحه .

وشارون يعرف أن ذلك من سمات المفاوض الأمريكى ، فهو يقوم بهذه المهمة من داخل الولايات المتحدة ، إذن فهو الأولى بالرعاية والاهتمام من الأمريكيين

أضف إلى ذلك عمق الروابط الاستراتيجية ، ونظرية قيام إسرائيل هى نظرية قيام إمريكا بالإضافة إلى الرباط الدينى المقدس «الآخذ فى النمو» .

الخلاصـــة

إن حقائق الممارسة أكدت على قيام الوسيط الأمريكى بدور الوسيط المنحاز والمشبوه ، وعلى المفاوض العربى أن يدير مفاوضاته على هذا الأساس ، وأن يركز على صراع الإرادات . والحل من وجهة نظرى المتواضعة هو انتهاج مبدأ «التفاوض الداخلى أولاً بين الفاعلين الرئيسيين فى الأمة العربية والإسلامية لبناء الحد الأدنى من القوة الجماعية ، لاستعادة ما يمكن استعادته على أرض الواقع من أوراق . كما أن على المفاوض الفلسطينى رد الاعتبار للداخل ، وتفعيل كل طاقات المفاوض الفلسطينى وتفعيل دبلوماسية المسار الثانى على الساحة الدولية وداخل الأرض الأمريكية . ومن المحاور الحيوية التى ينبغى التعامل معها التأكيد على قوة العلاقات والتنسيق فى ذلك المثلث الاستراتيجى خاصة المتمثل فى كل من القاهرة – الرياض – دمشق ، ومن أهم الأولويات الراهنة فتح صفحة جديدة بين المفاوض العربى العربى لعبور أزمة الثقة فيما بينهم . فالتنسيق أكثر من حيوى ، ولعل تذكر دروس الماضى الإيجابية منها خاصة فى حرب أكتوبر / رمضان وسياقات أخرى كما فى تعاون لبنان وسوريا هو الذى أدى إلى هروب إسرائيل من الجنوب اللبنانى وعدم قدرتها على ضرب المسارين بعضهما ببعض ، والتنسيق بين السوريين والفلسطينيين ، مع تعظيم قدرة المثلث الاستراتيجى للأمة العربية . فالتنسيق التام فى الموقف ، والربط بين المسارات وإظهار أشكال من القوة الكامنة فى أوراق لا نزال نملكها على صعيد الممارسة الفعلية لا الخطاب الرنان وبيانات التسكين اللحظى الغاضبة والتى تسمى فى قاموس السياسة الأمريكى «بخطاب الاستهلاك المحلى Local Consumption Discourse» ، ربما يكون له عائده الأجدى على الموقف التفاوضى العربى برمته ، وهناك بالتأكيد ما يدعو للحذر والقلق ولكن لا مناص من اتخاذ خطوات حاسمة ومدروسة على صعيد الممارسة الفعلية .

إن الخوض فى سمات المفاوض الأمريكى ، أو مفاوضات العم سام – لها أبعاد كثيرة ، ويحتاج الأمر إلى دراسة تفصيلية أخرى بلاشك ، وما قدمته ما هو إلا ملاحظات أولية لأمثلة نوعية أثق فى أن القارئ العربى سيجدها ممثلة إلى حد كبير لأسلوب المفاوض الأمريكى ، أو مفاوضات العم سام معنا .

خاتمة

سيناريوهات مستقبل تفاعلات العقل العربي والعقل الأمريكى

حاولنا من خلال هذه الدراسة تقديم رؤية تحليلية لمفاهيم التقييم العلمية والعوامل التى يمكن من خلالها دراسة المؤشرات الأولية للتعرف على حجم التباين والاختلاف فى تفاعلات كل من «العقل العربى» و «العقل الأمريكى» من منظور لغويات التفاوض والتواصل عبر الثقافات (Cross-Cultural Communication) (Negotiation Benchmarks وذلك بهدف المساهمة العلمية فى إيجاد ذلك الحوار الحضارى المبنى على المنهجية العلمية والصدقية التى يتطلبها مثل هذا الحوار التفاوضى المفترض والمطلوب لصالح إنسانية ومصالح هذا العالم ومن أجل الدفاع عن الحقوق العربية الإسلامية التى تتعرض للضياع والتشويه فى حملة دعائية غير مسبوقة تحركها اجندات سياسية جائرة معروفة «وتصاحبها جملة من الأخطاء فى أداء العقل الأمريكى وكذلك العقل العربى والتى لابد من تداركها وإعادة الأمور إلى نصابها على أساس علمى أخلاقى يتطلب حشداً عربياً إسلامياً ودولياً ممنهجاً .

سيناريوهات المعادلات المحتملة لمسار وناتج الحوار

نود أن نسجل هنا وبطريقة تلغرافية قدر الإمكان سيناريوهات المستقبل فى شكل المعادلات التالية :

سيناريو رقم (١) ومعادلاته الرئيسية [استمرار الحوار والتفاوض الشكلى فقط أو اللاحوار واللاتفاوض فى حقيقة الأمر] .

أى أن استمرار هيمنة القلة الاستراتيجية الراغبة فى تحقيق الهيمنة

+

نخب عربية تشعر بأنها مستهدفة بمستويات متعددة منها ما هو سياسى وما هو ثقافى

=

استمرار اللاحوار ... أى لا حوار حقيقى يُذكر بل هو حوار أحادى تسلطى يسعى لفرض «الأجندة الأمريكية» مقابل إذعان عربى (بل ودولى) .

توابع المعادلة :

- لمن يريدون استمرار هيمنة القلة الاستراتيجية الراغبة فى تحقيق أجندة الامبراطورية وسلسلة حروب الاذعان بدء من العراق ثم ما يلى بعد ذلك ... سيحاولون المزيد من تقليص الديمقراطية فى الغرب الأمريكى خاصة ومزيد من التخويف وتعميق «الديمقراطية الأمريكية» المخصصة لدول تابعة أو ديمقراطية مُحبطة ...

- تعميق فكر التفتيت الجغرافى بل وتفتيت التاريخ حـــتى لا يكون لدينا قوة تبعوية + الاستمرار فى حملة تشويه الآخر المسلم العربى وإنتهاج المباراة الصفرية معه ... والنتيجة مزيد من التفاوت والتباين والابتعاد فيما بين «العقل العربى» و «العقل الأمريكى» .. والمزيد من الإفلات فى إدارة الأزمة الممتدة وانزلاقها إلى أزمات مستعصية على الإدارة .
- زيادة الهوة والتباين فى عملية التواصل عبر الثقافات تقنياً وسياسياً .

سيناريو رقم (٢) ومعادلاته الرئيسية [سيناريو استنهاض القوة العربية الإسلامية وتفعيل المخزون الإستراتيجى لطاقات الأمة]

أى أن المطلوب هو حوار تفاوضى حقيقى داخلى أساساً فى الوطن العربى والعالم الإسلامى من واقع الأجندة الوطنية من أجل تفعيل طاقات ودمقرطة الأمة العربية الإسلامية ونمو فعلى نملك مقوماته ومن شأنه أن يظهر الأمة بالحد الأدنى المهيئ لها لأن تجبر الآخرين على إحترامها

= (يساوى)

توابع إيجابية لحوار الداخل ونتائجه الملموسة على الخارج ... فيكون كمانعة الصواعق التى تمنع أو تقلل من ضرر الآخر المتسلط فى محاولاته للهيمنة من الخارج وإجباره على النزول إلى ساحة الأخذ والعطاء المتبادل والمحقق لمباراة يكسب منها الجميع ... وإفهامه بخطأ حساباته التى تتعامل مع ثقافة كالثقافة العربية الإسلامية بأسلوب القوة والاخضاع بدلاً من التفاعل الحضارى الخلاق الذى يمثل القبول والاختيار الوحيد المتسق مع نظام قيم هذه الأمة العريقة

- **ما تتطلبه هـــذه المعادلـــة لتفعيلها ؟**

أ - تفعيل طاقات النخب الثقافية العربية ذات المخزون الثقافى الحضارى العميق والمشتتة أو الغائبة أو المغيبة حالياً بعيداً على التواجد والتمكين فى الواقع العربى... الذى يشغى بالآلاف المؤلفة من المغنيين والممثلين ولاعبى الكرة . كفاعلين للتسلية وكفاعلين ذى وظيفة سياسية واضحة وإن لم تكن معلنة أو مباشرة .

ب - تفعيل طاقات المجتمع المدنى الحر والمسؤول وإقامة رؤوس كبارى مع نخب وجماهير تسعى للبناء الإنسانى عبر العالم وإن يصحب ذلك تفعيل طاقات الباحثين عن عالم أفضل ، ولعل مقولة وزير العدل الأمريكى السابق رمزى كلارك فى القاهرة لتعبر عن هذا التوجه حين جاء مؤخراً ليشارك فى مناسبة إنعقاد المؤتمر الدولى لمناهضة الاحتلال الأمريكى للعراق وما يحدث من ألوان المعاناة الإنسانية التى يعانيها كل من الشعبين العربيين فى فلسطين والعراق (فى ٢٠٠٣/١٢/١٤) حيث قال :

«اننا نجتمع اليوم لندافع عن معنى السلام فى العالم ، تلك الكلمة الرائعة التى تهمنا جميعاً .. ان شعوب العالم كلها ترفض العدوان ... فالمدن الأمريكية قد خرجت لترفض سياسة احتلال العراق وترفض الأوضاع الإنسانية السيئة التي تعانيها شعوب العراق وفلسطين خاصة فى حالة أسوأ من حالات الحصار السابقة... إن بوش يحاول أن يعصف بالشعب الأمريكى وكأن صدق نفسه بقدراته على السيطرة على العالم ... اننا نرفض ذلك ونطالب بتعبئة رأى عام عالمى لمساندة العالم ورفض الاحتلال ...» .

وفى نفس المؤتمر قال چون ريس «ان سياسات العولمة كما تسير اليوم تشكل الخطر الأكبر على الديمقراطية ... وإن العولمة أصبحت محركاً للسياسات الاستعمارية التى تؤمن بأن القوة العسكرية تحسم الأمور بسرعة فى العالم الثالث .. ولكن هذا خطأ ... وان حروب الامبريالية التى بدأت ويبدوا أنها ستستمر لن تنتهى إلا بسقوط الامبراطورية الأمريكية ... إن للعالم أن يكون فى حالة مقاومة ورفض للإرهاب بكل صوره خاصة الإرهاب الفكرى فى عالم اليوم ...» .

جـ - السعى لتفعيل الديمقراطية والإصلاح الحقيقيين من الواقع الوطنى وليس أجندة الديمقراطية القادمة على فوهة المدفع والدبابة والطائرة ... والتخلى عن عقليات الوصاية البائدة فى الخارج وفى الداخل العربى أولاً والمتخندقة والمتسحلفة تحت مسميات متعددة فى الوطن العربى التى رسخت الفردية وحكم الفرد وحراسة الفرد وعدم تداول السلطة والوصول إلى حالة من الجمود غير المسبوقة الذى أعاق ويعوق الحوار الحقيقى مع الغرب وكل مناحى التنمية حيث جامعات فى حقيقتها لم تنمو حقاً ومراكز أبحاث لا تنتج كما ينبغى لها واقتصاد فى غاية التواضع ... وبيئة من البطالة تفرغ الإحباط وكذلك الإرهاب بأشكاله المتعددة مع الأسف ..

د - تفعيل النموذج العربى الإسلامى (الذى أوضحت معالمه التاريخية والمستقبلية فى مناظرتى لأطروحات فوكوياما عن «نهاية التاريخ» فى هذه الدراسة ... أى ذلك النموذج الذى يمثل سيناريو معيارى علينا أن نحققه ونجعله ممارساً بعيداً عن السوق السياسى الراهن والبضاعة المعروضة ، فهذا السوق تتوفر فيه ثلاثة نماذج أساسية مرفوضة تماماً وهى على غرار الفلم الغربى الشهير فى الستينات «الطيب والشرس والقبيح» ولكن الفلم فى مستهل الألفية والمُنتج عربياً ودولياً هو «المخرّب والمنبطح والمتسحلف» وفيما يلى نقدم توصيفاً لمضمون هذه النماذج الثلاثة :

١ - **المخرّب** : وهو النموذج الصدامى الذى خرب الأمة العربية الإسلامية وفتح عليها أبواب جهنم من ناحية إصدار مصادرها فى حروب لا طائل منها سواء ضد إيران لمدة ثمانية أعوام ثم غزو الكويت فى عام ١٩٩٠ مع تاريخ ملئ بالاستبداد والبطش والقمع والخطابات الإنشائية والجمود الفكرى المتجاهل لديناميكيات وأوضاع دولية كان إذا أمكن التعامل معها بثروات العراق وعمقها الحضارى لتجنبت كل الفخاخ ولفقت دولاً عديدة ولحقت بمصاف الدول المتقدمة ... ولكن النموذج الذى حصلنا عليه من صدام كان نموذج الخراب والهوان بل إن الأسوأ فى التاريخ العربى سواء أثناء وجود صدام وحكم بالاستبداد القمع والتنكيل والاقصاء أو عندما قبض عليه فكانت الخلاصة فى الوعى الإعلامى عبر العالم كله هو «جندى طبيب أمريكى بقلب رأس حاكم عسكرى عربى (كان الركن المهيب وقائمة الألقاب الأخرى) يميناً ويساراً «ويفليه» بحجة البحث عن «أورام» أو ربما ليتفحص جوانب «العبقرية المذهلة» ثم يأمره بفتح فمه لينظر وينظر العالم كله إلى ذلك الميكرفون البشع الذى أطلق مآسى «الخطاب العربى المترهل» بعيداً عن القيم الأصيلة للثقافة العربية الإسلامية العريقة .

٢ - **المنبطح** : أما نموذج المنبطح على الدوام فهو أحد النماذج العربية الأخرى المعروضة علينا والتى يتبناها البعض وتتجلى فى عدم الإمساك بالحد الأدنى من المساحة الموجودة بالفعل للتفاوض وعدم محاولة رؤيتها وتلمس الوقوف على أرضيتها رغم إمكانية ذلك وإمكانية توسيع مثل تلك الأرضية إما عن خوف وارتعاد أو عن عدم ثقة وخبرة وتدرب أو لوجود الرجل غير المناسب فى المكان غير المناسب مما يمثل إهداراً بالغاً ... وتتم صور هذا الإهدار باشكال واحداث عديدة يراها الجميع حيث لا تفريق بين ما هو ممكن وما محتمل وما هو غير ذلك الأمور هنا مسطحة تماماً ولا داعى لذكر الكثير من أمثلة كان من الممكن الاستفادة منها أكثر مما حدث رغم اختلال موازين القوة .

٣ - **النموذج الثالث هو ما أسميه «بنموذج المتسحلف» أو «نموذج شرشر»** : أى ذلك النموذج الذى يجسد التعامل مع الأحداث بعقلية جامدة وببطء شديد وتتجاهل التغيير الحقيقى أو غير قادر عليه كما يتجاهل أن حركة العالم اليوم فى كافة المجالات لا تتناسب و «إيقاع شرشر» هذا . فلقد غير العالم المبدأ القائل «البقاء للأصلح» (Survival for The Fittest) إلى «البقاء للأسرع» (Survival for The Fastest) وللتوضيح الأكثر والأطرف لما أقصده بنموذج «شرشر» هو استخدام هذا المصطلح فى لغة

الحوار المصرى الخاصة ... وهو مستمد من «اسكتش» ثلاثى أضواء المسرح الشهير وهو «اسكتش الكورة» حيث تقول مفردات الراحل حسين السيد (واصفاً لاعب اسمه شرشر كان بطيئاً جداً بقوله :

«لسه بيمشى لسه ... شوط ما تخفش شوط شرشر شاط ... شرشر شاط... اتارى الجزمة ناقصها رباط ... الكورة خرجت بره والجزمة دخلت جول...» !!!

تحولت هذه المقولة من باب الدعابة العالمية فى لغة الحوار المصرى للتعبير عن البطء الذى يتسبب فى الفشل فى نهاية المطاف مع كل الأسف .

البديل لهذه النماذج هو نموذج مصرى – عربى – إسلامى ينبع من أجندة مصالحنا الاستراتيجية وله القدرة العالية على التفاعل الدولى الإيجابى والفعال لنكون أنفسنا ولنكون جزءاً حيوياً فى تفاعلات هذا العالم بعيداً عن النماذج الثلاثة المذكورة التى يراد لنا أن أن نظل فى إطارها أو نختار منها فقط وساءت كلها ... وذهبت إلى حيث يذهب ما لا ينفع .

د – وضع منهجية للحوار الحضارى وهو الأمر الذى كرسنا له ثلاثة أعمال إلى اليوم آخرهم هذه الدراسة التى بين يدى القارئ الكريم .

سيناريو رقم (٣) [سيناريو رد الفعل المحدود أو المتأخر أو اللافعل واللاتحرك]

معادلة الانتظار العربى الإسلامى واختيار رد الفعل المحدود بعيداً عن النظرة المستقبلية أو المتأخر أو اللافعل بكل أشكاله بحيث يكون الأمر قدرياً وما تأتى به الأقدار دون التدخل ودونها السعى الذى يستشعره إنسان العالم المتقدم وتحثنا عليه الشريعة الإسلامية الغراء والشرائع السماوية كلها ... وهنا يتمنى العرب «سيناريو إنهيار أمريكا» مثلاً [بحكم وجود بعض المؤشرات كالتى عرضناها فى الجزء الثالث من هذه الدراسة .. ولكن مع سيناريوهات القوة المحتملة كذلك] . ويفرحون لمقاومة عراقية وفلسطينية تأتى من تلقاء نفسها فقط ... كما يفرحون لمناقشة مثل تلك التى دارت بين رامسفيلد ورجال الإعلام الأمريكيين حين ذهبوا إلى مواجهته بالقول بأن العراق قد أصبح كالمستنقع الڤيتنامى Quagmire ، فقال لهم رامسفيلد أن جنوده يتحركون بثبات كالـ (Slogs) فاعترض صحفي وقال «.. إذن أنت تعترف بأنك فى «المستنقع العراقى» ، لأن كلمة (Slog) ليس معناها الذى يسير ببطء وثقة فعرفها رامسفيلد من قاموس وبستر بهذا المعنى فاحضر له الصحفى تعريف قاموس «أمريكانى هيرتدرج» الذى يؤكد أن معنى "Slog" هو الذى يسير فى مستنقع ... أو كأن نفرح لتصريح قائد أمريكى كبير بقوله إن الولايات المتحدة أصبح جاذبة للإرهاب وليس للاستثمار "The US is a "Terrorist Magnet .

وهذه المعادلة تمثل راحة للأغلبية التى ارهقتها ثقافة الاستبداد والتسلط ووجود زعيم أبوى يفعل كل شئ نيابة عن أمته .. فهو الأب والزعيم ورجل الفكر وداهية الإقتصاد ... وأسد الحرب وبطل السلم .. وكل شئ ولذلك «لا تكل جماهير تعبده أن تجرى وتروِّح عن نفسها لتقول «بالروح والدم نفديك يا فلان» .

إذن هذه معادلة مريحة لا تتطلب منا غير الهتاف والاتكال وهنا ننعم «بالهدوء والسكينة» وهنا توجد سمة الدعوة علي الظالمين فقط والفرح في مصائبهم ومشاكلهم كما توجد سمة أخرى أسميتها بظاهرة مكنمارا فى العقل العربى حيث يقول أحد المجسدين لها «أنا مكنمارا صديقى وسوف أدعوه ليتحدث لنا !!» فى هذا الصرح الكبير (الذى يرأسه) ومكنمارا هو وزير الدفاع الأمريكى الأسبق أيام حرب ڤيتنام والذى تمت مكافأته ليكون رئيساً للبنك الدولى سابقاً .. وبعد خروجه من البنك الدولى كون جمعية (NGO) ويريد أن يقول لنا أنه كان معارضاً لحرب ڤيتنام اليوم ؟! ... والسؤال : كيف كان لمكنمارا أن يعترض وهو الذى كان موافق ضمنياً على قتل مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين والڤيتناميين الأبرياء على حد سواء .. عندما كان وزير الدفاع ولم يقل كلمة أو يستقيل ..

ولكن هذه هى من توابع سمات المعادلة رقم (٣) هذه أي التمنى بالمصائب وفى أحسن الأحوال التحرك الغريب لدعوة «رهان خاسر» كمكنمارا ... وأمثاله من الذين لا قيمة حقيقية لهم فى أمريكا أو فى العالم إلا عند البعض المكمل لشكل معادلات اللافعل الحقيقى بل الذين يمارسون الإهدار الحقيقى البشع وغير المبرر لتكلفة نفقات مكنمارا واستضافته فى بلادنا بأغلى سعر !!

فى نهاية الخاتمة أؤكد أنها ليست خلاصة لما جاء فى هذه الدراسة ولكنها تعبر عن رؤية لمعادلات ثلاثة قائمة بمستوى أو بآخر ... وان الإمساك بخيوط إدارة الأزمة القائمة والممتدة لسنوات قادمة تحتم علينا التمسك بتفعيل المعادلة الثانية الحيوية لنا وللعالم أجمع وللعقل العربى وللعقل الأمريكى على السواء ... وأرى أن هناك بعض الجهود المخلصة التى تبذل فى إطارها وإن لم تحظى بالدرجة المطلوبة بالطبع .. وأرى أن أختتم بالأمل فى مسقبل مشرق نستنهض بسواعدنا وفكرنا وطاقة هذه الأمة العربية الإسلامية التى لن تموت ولن تركع رغم الكبوات والفجوات القائمة ... لأن دورها فى النماء واعمار الكون عندما تنهض لا يكون فقط فى صالح شعوبها بل لصالح الإنسانية كلها ... والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان .

تمت بحمد الله